

التجديد في التفسير القرآني الشيعي

قراءة في تفسير راهنما

(*)
أ. محمد عابدي

ترجمة: السيد حسن مطر الهاشمي

المقدمة^(١)

١- الاتجاهات التفسيرية

ثمة تقسيمات متعددة للاتجاهات التفسيرية، ومن أهم تلك التقسيمات؛ تقسيم جولدتسيهر، وهو من الذين ابتكروا بحث الأساليب والاتجاهات التفسيرية^(٢)، وتقسيم الدكتور الذهبي^(٣)، وتقسيم الشيخ معرفت^(٤). وفي تبويب شامل يمكن تقسيم الاتجاهات التفسيرية على النحو الآتي^(٥): المذاهب التفسيرية، والمدارس التفسيرية، والانتماءات التفسيرية، وأساليب التأليف. ومجموع هذه الشخصيات الأربع، هي التي تحدد نوعية الاتجاه لأي تفسير من التفاسير.

أ - المذاهب التفسيرية: عمد كل مذهب من المذاهب الإسلامية إلى تفسير القرآن الكريم انطلاقاً من قناعاته المذهبية؛ فاهتمت الإسماعيلية بالتفسير الباطني والرمزي، وذهبت الخوارج إلى منهجها الخاص، كما مال مفسرو الشيعة إلى ظاهر وباطن القرآن الكريم والآيات المرتبطة بأهل البيت عليه السلام اعتماداً على روايات أهل البيت، وهكذا الأمر بالنسبة إلى سائر المذاهب الأخرى، حيث كان لمذهب المفسر تأثير مباشر في تكوين اتجاهه وانتمائه التفسيري.

ب - المدارس التفسيرية: مضافاً إلى تأثير المذاهب، كذلك كان للمدارس

(*) باحث في القرآنيات.

التفسيرية دخل في تحديد زاوية الرؤية التي ينظر المفسر من خلالها إلى الآيات الشريفة؛ فقام كل من المعتزلة والأشاعرة ومتكلمو الشيعة بتفسير الآيات المباركة على كيفية خاصة مغايرة للكيفية التي يراها الآخرون^١.

ج. الانتماءات التفسيرية: وقد أدى تخصص المفسر في علم بخصوصه، أو مشربه ومذاقه الشخصي في علم من العلوم أو مبحث بخصوصه، إلى ظهور اختلافات في التفسير أيضاً؛ فظهرت لذلك اتجاهات متعددة: كالاتجاه الأدبي، والاتجاه الفقهي، والاتجاه الفلسفي، والاتجاه الاجتماعي، والاتجاه الأخلاقي، والاتجاه التاريخي، والاتجاه العلمي وما إلى ذلك.

من جهة أخرى، يميل المفسرون إلى اتجاهات بعينها، بسبب ظروفهم وحاجاتهم الخاصة وما يحيط بهم من مشاكل عصرهم؛ فينعكس ذلك على تفاسيرهم فتحكي بدورها عن تنوع في الاتجاهات، من قبيل تفسير (في ظلال القرآن) ذي الاتجاه الأخلاقي والروحي، و(تفسير الكاشف) لمحمد جواد مغنية ذي الاتجاه الجهادي والسياسي، وما إلى ذلك.

د. أساليب التأليف: إن لمشرب ومذاق المفسرين ومن يخاطبونهم في تفاسيرهم، دخل رئيس في اختيار الأساليب والميل نحو أسلوب بعينه، ومن هذه الناحية يمكن للتفسير أن يكون تريبياً كما في تفسير: الميزان، ومجمع البيان، وغيرهما، أو موضوعياً كما في تفاسير: نداء القرآن، والصحيفة الخالدة وغيرهما، أو مختصراً أو مطولاً كما في التفاسير الثلاثة: الأصفى والمصفى والصافي، وغيرها، والشرح والمتمن كما في الميزان وغيره، أو مزجياً كما في تفسير شبير، ونفحات الرحمن للنهاوندي وغيرهما، أو كاملاً، كما في مجمع البيان للطبرسي، أو ناقصاً كما هي الحال بالنسبة لبعض السور، وفي الختام قد يكون أحياناً جامعاً في القراءات، واللغة، والأدب، والأقوال، والروايات، أو تخصصياً من قبيل التفاسير الروائية أو الأدبية.

وبالالتفات إلى ما تقدم، نستعرض كتاب (تفسير راهنما) لمؤلفه الشيخ علي أكبر هاشمي رفسنجاني، ونبحث فيه عن مختلف الاتجاهات المذكورة.

٢- تفسير راهنما، سمات التفسير الجامع —

هناك في كلّ تفسير تأثير كبير للتوجّهات العصرية وأساليب العرض والكتابة، وهذا بحدّ ذاته حصيلة ما يختزنه المفسّر من معتقدات وحاجات وأذواق واختصاصات علمية. وفي التفاسير الفردية يمكن تحديد تلك التوجّهات بسهولة؛ بسبب محدوديتها عند المفسّر الواحد، أما بالنسبة إلى التفاسير ذات المجهود الجماعي - ومنها تفسير راهنما - فليس الأمر على تلك البساطة؛ إذ في المجهود الجماعي يقوم العمل على أساس مجموعة التوجّهات.

من هنا، يجب إدراج (تفسير راهنما) في قائمة التفاسير الجامعة؛ إذ وجدناه من خلال الفحص في فصوله المختلفة قد استفاد من جميع الاتجاهات استفادة كافية. ومع ذلك فإن هذه الدراسة تظهر أن بعض الاتجاهات - كالاتجاه الاجتماعي وما شابه - قد برز فيه بشكل أوضح من الاتجاهات الأخرى.

وبعد هذه المقدمة، ندخل في تعريف مختلف الاتجاهات التفسيرية في (كتاب تفسير راهنما).

أ- المذهب التفسيري في تفسير راهنما —

يرى الشيخ معرفت أن الروايات التفسيرية في الحقيقة ما هي إلا منهاج لتعليم التفسير ومفتاح للوصول إلى مواضيع ومفاهيم وبطون القرآن الكريم، فإنهم عليه السلام يعلموننا كيفية تفسير القرآن الكريم... والباطن عبارة أخرى عن التعمّق في آيات القرآن الكريم. هذا هو المفهوم العام الذي يرمي إليه القرآن الكريم والنبى الأكرم عليه السلام والأئمة الأطهار عليهم السلام، وهذه هي المفاهيم العامة التي تؤخذ من الآيات، والتي تكون (تفسير راهنما) على أساسها، وهي بطن القرآن وتأويله؛ لأننا التزمنا بأن للقرآن سبعة أو سبعين بطناً، حيث يمكن الاستفادة من آية واحدة عدّة استفادات عرضيّة وطوليّة، وهناك لكل واحد منها شاهد صادق وناطق، ويستدعي هذا الأسلوب - للإنصاف - مجهوداً أساسياً

وحيوياً هادفاً ومتيناً، وقد تمّ إنجازُه في (تفسير راهنما)^(٧)، فعلى سبيل المثال، يتعرّض لشبهة المشركين في أنه ليس من الممكن للإنسان العادي أن يكون سفيراً ومرسلاً من قبل الغيب وقولهم: ﴿مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ﴾؛ فيذكر جوابين للقرآن: أحدهما نقضيّ وهو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَكِيلًا﴾ (الأنعام: ٩)، وآخر حليّ وهو قوله تعالى: ﴿فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ (الأنبياء: ٧)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ (يوسف: ١٠٩)؛ إذ يطالبهم بسؤال أهل الكتاب حيث يعلمون أن جميع من أرسلنا من قبلك كانوا من البشر؛ فيذهب إلى أن هذا ما يقتضيه ظاهر القرآن، وأن النبي الأكرم يأمرنا بالبحث عن باطن الآية، وهكذا الإمام الباقر يقول: إن بطن القرآن هو تأويله، ثمّ يقول: إن المراد من المشرك في هذه الآية هو المشرك بما هو جاهل لا بما هو مشرك، والمراد من أهل الكتاب هو العالم لا بما هو من أهل الكتاب، وبذلك يصل إلى بطن الآية وكنهها وهو إن كلّ مجهول سواء أكان في الأصول أم الفروع ينبغي فيه رجوع الجاهل إلى العالم، وأنه يجوز تقليد العامي للفقهاء العالم^(٨).

المصادر الروائية المعتمدة

استتدت اللجنة التفسيرية في إثبات المطالب الروائية إلى مصادر مثل: تفسير البرهان، ونور الثقلين، وبحار الأنوار، والدر المنثور، الجامعة لعمدة الروايات التفسيرية عند الفريقين^(٩). كما درست اللجنة ما ينيف على الثلاثين من الكتب الروائية^(١٠). وتمّ الرجوع في متون الأحاديث إلى أقدم المصادر الرجالية لدى الشيعة والسنة، وتمّ اعتماد الروايات على شرط عدم مخالفتها للقرآن الكريم وحكم العقل والأصول المتفق عليها عقلياً. كما يشاهد بوضوح الاتجاه إلى المذهب التفسيري لأهل البيت في مقدمة هذا التفسير أيضاً: .. إن رسول الله ﷺ مبيّن لمراد القرآن. وكذلك طبقاً للحديث النبوي المتواتر: «إني تارك فيكم الثقلين؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا»^(١١) وطبقاً للحديث النبوي القطعي: «أنا مدينة العلم وعلي بابها»^(١٢)، يكون الإمام

علي - بوصفه من أبرز أعلام أهل البيت - وارث علم النبي الأكرم، وبالطبع فهو وارث لذلك العلم الذي كان رسول الله ﷺ يفسر به مبهمات القرآن الكريم، وأن أئمة أهل البيت من ولد علي هم عدل للقرآن الكريم طبقاً لحديث الثقلين وغيره من الروايات. وعليه؛ تكون الروايات المعتبرة الصادرة عن الإمام علي وسائر أئمة أهل البيت في تفسير القرآن الكريم، حجة وركناً أساسياً في عملية التفسير. بديهي أن الاستفادة قد تمت من هذه الأحاديث في هذا التفسير بغية فهم كلام الله عز وجل^(١٣).

وقد سعى المصححون في تفسير راهنما إلى الوفاء والإخلاص عملياً لهذا الاتجاه، ولذلك رجعوا إلى الأحاديث مراراً في تفسير الآيات، حتى كان حجم الاستفادة من الروايات في تفسير بعض الآيات ملحوظاً بشكل كبير. من باب المثال تجد في هامش الآية ٢٦ من سورة البقرة، الفائدة ٨، ١١ - ١٥، مستفادة من الروايات، وفي هامش الآية ٣ من سورة المائدة تشاهد بوضوح أن الفائدة ٢٠ - ٢٤، ٢٦ - ٣٠، ٥٣ - ٥٥، مستفادة من الروايات أيضاً. ومنها في الفائدة ٥٤ نجد هذه الكلمات: إن ولاية علي عليه السلام هي آخر فريضة أنزلها الله تعالى، ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، قال الإمام الباقر عليه السلام^(١٤): «أمر الله عز وجل رسوله بولاية علي... وكانت آخر الفرائض؛ فأنزل الله عز وجل: اليوم أكملت... يقول الله عز وجل: قد أكملت لكم الفرائض»^(١٥).

ب- المدرسة التفسيرية لـ تفسير راهنما —

شكلت آراء متكلمي الشيعة في موارد عديدة أسساً فكرية للمحققين في تفسير الآيات، وأصولاً لا تقبل النقاش والجدل. لقد كانت عقائد المسلمين في عصر النبي الأكرم واحدة، وبعده برز الخلاف في مثل الإمامة والخلافة، ثم اتسع الخلاف وانسحب إلى أمور أخرى كصفات الله والأنبياء، حتى تكون علم الكلام في أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثاني. فأسس واصل بن عطاء (٨٠ - ١٣١هـ) مدرسة الاعتزال، وأقام أبو الحسن الأشعري (٢٣٠هـ) مدرسة الأشاعرة. وانتعشت مدرسة أهل البيت عليه السلام الكلامية

بعقائد خاصة في مسألة الإمامة والعصمة وما إلى ذلك . من الأمور التي صدع بها أهل البيت منذ صدر الإسلام . على يد الشيخ المفيد (٣٢٦ - ٤١٣ هـ)، والتجأت المدارس الكلامية إلى القرآن لإثبات معتقداتها؛ فتمسكت بما وافقها من الآيات، وعملت على تأويل المخالف منها، من هنا ظهر (الاتجاه الكلامي المدرسة التفسيرية) في التفسير.

وأهم المدارس الكلامية في التفسير هي الاتجاه الكلامي لدى المعتزلة^(١٦)، والأشاعرة^(١٧)، والشيعة. ومن أهم التفاسير ذات الاتجاه المعتزلي يمكن الإشارة إلى متشابه القرآن، وتزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين البيضاوي، وجامع التأويل لمحكم التنزيل لأبي مسلم الإصفهاني، وغيرها^(١٨). ومن التفاسير ذات الاتجاه الكلامي عند أهل السنة يمكن عدّ تأويلات القرآن لأبي منصور محمود بن الماتريدي، ومدارك التنزيل عن حقائق التأويل لعبد الله بن أحمد النسفي، وبيان المعاني لعبد القادر آل غاري، ومفاتيح الغيب للفيخر الرازي، وغيرها^(١٩).

وما يمكن بحثه عن الاتجاه الشيعي في التفسير عبارة عن: التوحيد في الصفات والأفعال، والعدل الإلهي، والاهتمام بالعقل والنقل، والاعتقاد بالحسن والقبح العقليين، وحرية الإنسان واختياره في مقولة الأمر بين الأمرين، ورفض التكليف بما لا يطاق، وامتناع الرؤية بالعين، والاعتقاد بإمامة الأئمة الأثني عشر عليهم السلام، وعصمة الأئمة والأنبياء، والاعتماد في التفسير على البعدين: الظاهري والباطني^(٢٠).

ومن أهم التفاسير ذات الاتجاه الشيعي، يشار إلى غرر الفوائد ودرر القلائد أمالي السيد المرتضى، والتبيان للطوسي، ومجمع البيان للطبرسي، وصولاً إلى الميزان في تفسير القرآن للطباطبائي و...

وهناك مواطن عديدة في تفسير راهنما، تتجلى فيها المدرسة الكلامية الشيعية بوضوح، ومنها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: ٧٩)، ففي الوقت الذي ترى الأشاعرة فيه أن الله سبحانه وتعالى

يجلسُ نبيه على عرشه إكراماً له لتهجّده في الليل، وتذهب المعتزلة إلى نفي أن يكون لله مكان، وترى استحالة جلوس الله على العرش^(٢١)، نجد في تفسير راهنما الكلام الآتي: «٩ - بلوغ المقامات الروحية السامية (المقام المحمود)... ١٤ - إرشاد النبي الأكرم إلى الوصول إلى المقامات الروحية العالية، مظهرٌ من مظاهر الربوبية له. ١٥ - كان النبي ﷺ بحاجة إلى القيام ببعض الأعمال المناسبة لكسب الكمالات الروحية الرفيعة. ١٦ - إن المقام المحمود مقام في غاية الرفعة بين المقامات الروحية. ١٩ - سؤل الإمام الباقر أو الصادق عن معنى قوله تعالى: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾؛ فقال ﷺ: «إن المراد من المقام المحمود هو الشفاعة». ٢٠ - قال الإمام علي ﷺ: «... يجمع الله الناس - يوم القيامة - في موضع فيه مقام محمد وذلك هو المقام المحمود»^(٢٢). وبذلك يتضح أن تفسير راهنما من خلال التفاته إلى مبدأ امتناع الرؤية وعدم جسمية الله عز وجل.. وفي ظلّ تفسير أهل البيت يرى المقام المحمود مقاماً معنوياً.

وفيما يتعلق بقوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة: ٢٢ - ٢٣)، ذهب بعض مفسري الأشاعرة إلى رؤية الله يوم القيامة، وهو ما تؤيده روايات في صحيح البخاري^(٢٣)، إلا أن المعتزلة رأت أن ظاهر هذه الآية يتعارض مع قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ (الأنعام: ١٠٣)، وذهبت إلى مجازية رؤية الله في يوم القيامة^(٢٤). بينما ذهب تفسير راهنما - آخذاً بعين الاعتبار الأسس الشيعية - إلى أن معنى النظر إلى الله سبحانه هو النظر إلى ثوابه وانتظار رحمته (الفائدة: ٣)، والنظر إلى الله دون أن تكون له كيفية أو حدٌ محدود (الفائدة: ٤، حديث للرسول الأكرم ﷺ)، وانتظار الثواب الفائدة: ٥، حديث للإمام الرضا ﷺ^(٢٥).

ج- انتماءات التفسير —

أدى تنوع الاختصاصات لدى المحققين العاملين في مشروع تفسير راهنما إلى محصول مفعم بجميع الاتجاهات اللازمة في التفسير؛ فيمكن مشاهدة الاتجاه الأدبي فيه إلى جانب الاتجاه الفقهي والفلسفي والاجتماعي وغيرها أيضاً.

١- الاتجاه الأدبي —

يعتمد أصحاب هذا الاتجاه - من خلال إعراب الجمل وتركيبها - إلى دراسة ألفاظ الآيات ومعانيها ، مستفيدين في ذلك من علوم النحو والصرف والبلاغة وأقسامها من المعاني والبدع وما إلى ذلك ، ويرون أن القرآن قد نزل باللغة العربية ولا بد لفهمه من الاستعانة بهذه اللغة. وأهم التفاسير ذات الاتجاه الأدبي: مجمع البيان، وجوامع الجامع للطبرسي، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري، وإملاء ما من به الرحمن من وجوه القراءات في جميع القرآن لأبي البقاء العكبري، وتفسير التبيان للطبرسي وغيرها.. وقد استفاد المحققون في تفسير راهنما من كتاب مجمع البيان وغيره في عملهم هذا.

وقد اهتم هذا الاتجاه بالإعراب والتركيب ومعاني الألفاظ والفصاحة والبلاغة والمترادفات وما إلى ذلك؛ فمثلاً نجد الزمخشري في قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ يستفيد الحصر من تقدم معمول (إلى ربها): أي أن العباد في القيامة لا ينظرون إلا إلى ربهم، ثم يطرح إشكالاً ويجب بالتفصيل عن انحصار الرؤية إلى الله سبحانه ويتوصل إلى أن المعنى هو نظر الناس في يوم الحشر إلى نعمة الله وكرمه دون تجسيد الله عز وجل^(٢٦).

وتفسير راهنما وإن لم يكتب بأسلوب أدبي، إلا أن اعتماد المصادر وما جمعه من الموارد الأدبية البديعة يكشف النقاب عن تدخل هذا الاتجاه في فهم الآيات الشريفة، وبعبارة أخرى: كثيراً ما نجد الأدبيات فيه، لكن لا بوصفها أسلوباً، بل اتجاه تفسيري، ومن ذلك ما نراه في تفسير ذات هذه الآية:

- ١ - إن وجوه المؤمنين المنيرة يوم القيامة تتطلع إلى الله فقط منجذبة إلى جماله ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۖ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾، ويمكن أن يكون تقدم (إلى ربها) لإفادة الحصر.
- ٢ - ينظر المؤمنون يوم القيامة إلى لطف الله وثوابه فحسب ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ وهذه الاستفادة تقوم على حذف المضاف، وتقديره: إلى ثواب ربها ناظرة.
- ٣ - إن أعين المؤمنين يوم القيامة لا ترجو غير الله تعالى..^(٢٧).

وتكشف هذه الفوائد بوضوح عن الاتجاه الأدبي في هذا التفسير، وكانت تجدر الإشارة إلى المصادر التي تدلّ على هذا الاتجاه.

٢- الاتجاه الفقهي —

هناك أحكام تكليفية في الكثير من آيات القرآن الكريم^(٢٨)؛ وقد كان يتمّ العمل بهذه الآيات في عصر النبي الأكرم عليه السلام، لكن بعده ظهرت خلافات وكان المفسّرون مع وجود الإمام علي وأهل البيت يعملون على رفع الإشكالات^(٢٩)، وكان هذا منطلقاً لنشوء (فقه القرآن) كتفسير موضوعي استمرّ إلى يومنا هذا. لكن بعد أن ظهرت المذاهب الفقهية في القرن الثاني وما بعد، عمد كلّ مذهب إلى تفسير آيات الأحكام، والتجأ بعضها أحياناً إلى التأويل وأسرف في ذلك^(٣٠). وفي هذا الاتجاه تُعالج الآيات التي تتعلّق بحياة الناس وتبيّن لهم أحكامهم الشرعية. ويقوم هذا التفسير على الأسس التي تبنّاها المفسر في فقه مذهبه وأصوله. ويعمل المفسر على فهم المسائل وفقاً لاتجاهه الفقهي، ويعقد العزم على استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من الآيات. فيعمل المفسر الشيعي على أساس مذهب أهل البيت ويفسّر آيات الأحكام برواياتهم، وطبعاً يستفيد كذلك من القرائن العقلية الأخرى، ومن هذه التفاسير: أحكام القرآن للراوندي، وزبدة البيان في أحكام القرآن للمحقق الأردبيلي، وكنز العرفان للفاضل المقداد، وغيرها..

وبعض هذه الآيات التي تُبدي الاتجاه الفقهي الشيعي في تفسير راهنما عبارة عن آيات: المتعة^(٣١)، والخمس^(٣٢)، وحج التمتع، والوضوء^(٣٣)، وغيرها... ومضافاً إلى ذلك عمد المحققون تحت عنوان (الأحكام) بتحديد المطالب الفقهية التي تقوم بأجمعها على الأسس الفقهية الشيعية، من باب المثال في هامش الآية ٢٤ من سورة النساء تحت عنوان الأحكام، يمكن ملاحظة الفائدة: ١- ٦، ٨- ٩، ١١- ١٤، ١٦، ٢٢- ٢٥، وعنوان الزواج الأحكام - ١، ٤، ٦، ٧، ٨، ١٤، ١٩، ٢٢، ٢٣، ٢٥، والأحكام - المنقطع: ١١، ١٢، ١٣، ٢٠، ٢٤، والجمع بين الأختين ١٤؛ ومن غير المسلمة ٢٢؛ والمحارم ٤، والحرام ١، ٤؛

وفي الأديان ٧: وفي الإسلام ٧: والأهمية ٥: والشروط ٨: وشرائط الصحة ١٤: والمعاهدة ٢٥: والمهر ٨: والعلاقات الجنسية محدودة، ٥، المرأة حقوق، ١٥، والأمة الاستمتاع ٢، اللذائذ الحرام ١: الحلال ٢، والمحرمات ١، ٤، ٩، ومؤنة السنة الحرام ٩، المهر الأحكام: ١٢، ١٣، ١٤، ١٦^(٣٤).

ففي شرعية الزواج المنقطع (المتعة)، ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ﴾، قيد دفع المهر بشرط الاستمتاع، والمراد من الاستمتاع هو الزواج المنقطع (المتعة): وذلك لأن دفع المهر في العقد الدائم ليس مشروطاً بالاستمتاع الجنسي، وهو ما يؤيده حديث الإمام الباقر عليه السلام حيث أجاب عن سؤال حول المتعة فقال: نزلت في القرآن فما استمتعتم به منهن فاتوهن أجورهن فريضة^(٣٥). وقد بحث تفسير راهنما أيضاً عن وجوب تحديد مقدار المهر في الزواج المنقطع. ووجوب دفع المهر في قبالة الاستمتاع الجنسي فيه، وتحديد مقدار المهر فيه شرطاً في صحة العقد، وجواز تغيير مقدار المهر بالزيادة أو النقصان أو هبته برضا الطرفين، ويقوم تشريع الزواج المنقطع وأحكامه على حكمة الله وعلمه، وجواز تمديد الأجل وزيادة مهر المرأة في الزواج المنقطع بعد انتهاء مدته^(٣٦).

كما نشاهد الاتجاه الفقهي الشيعي في تفسير راهنما فيما يتعلق بآية الوضوء بوضوح ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ...﴾: حيث يذهب إلى أن المراد من عبارة (إلى المرافق) بيان الحد من اليد، لا بيان الغاية من الغسل، أي إن الآية تقول: اغسلوا أيديكم على أن لا يقتصر هذا الغسل على الأكف، ولا يتجاوزها إلى الأكتاف، بل حد الغسل إلى المرافق، وهذا ما يؤيده حديث الإمام الباقر عليه السلام^(٣٧) حيث قال في توضيح هذه الآية: «... وليس أن يدع شيئاً من يديه إلا المرفقين إلا غسله؛ لأن الله يقول: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ...﴾»^(٣٨).

وحول وجوب الوضوء للصلاة بعد الاستيقاظ من النوم ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ قال الإمام الصادق^(٣٩) في جواب سؤال عن معنى قوله: (إذا قمتم) في هذه الآية: «إذا قمتم من النوم...»^(٤٠)، وكذلك فيما يتعلق بالآية ٢٨٢ من سورة البقرة: فقد

توصل تفسير راهنما إلى اثنين وستين مطلباً وفائدة فيها.

٣- الاتجاه الفلسفي —

يندرج البحث عن الوجود ومباحثه في نطاق الفلسفة، وقد ذهب بعض المحققين كالفخر الرازي والغزالي إلى تعارض الأفكار الفلسفية مع الإسلام، خاصة تلك التي ظهرت في عهد المنصور والمأمون العباسي من خلال ترجمة المؤلفات اليونانية والهندية والفارسية^(٤١). في حين ذهب آخرون كالفارابي وابن سينا وصدر المتألهين إلى الإيمان بالفلسفة، ووجدوها منسجمة مع آيات القرآن الكريم^(٤٢)، إن العناية بتفسير الآيات التي تتحدث عن الكون والوجود وما شابهها من الآيات من خصائص هذا الاتجاه، ويستفيد من الأسلوب الاجتهادي والعقلي. ويعدّ تفسير ابن سينا، والتفسير القرآني، واللغة الصوفيّة في فلسفة ابن سينا، تأليف: حسن العامي في شرح الأسس التفسيرية لابن سينا، من الكتب التفسيرية ذات الاتجاه الفلسفي المشائي، وبالنسبة إلى الاتجاه الإشراقي ينبغي الرجوع إلى مؤلفات شيخ الإشراق. أما التفاسير المتأثرة بالحكمة المتعالية فعبارة عن: تفسير القرآن الكريم وأسرار الآيات لصدر المتألهين، وتحفة الأبرار في تفسير القرآن، وتفسير الرضوان^(٤٣)، وختاماً الميزان في تفسير القرآن. وأهم الآيات المطروحة في هذا الاتجاه المذكور عبارة عن: إثبات وجود الله وطرقه الاستدلالية المختلفة، وحقيقة وجود الله وصفاته، والتوحيد ومراتبه ومراحله، ومسألة النفس والعقل والعلية، وما شاكل ذلك^(٤٤).

ومن باب المثال يمكننا أن نذكر قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ﴾ (النور: ٣٥)، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣)، ومن باب المثال ذكرت في تفسير راهنما خمسة وعشرون فائدة على هامش الآية: ٣٥ من سورة النور، تتحدث عن ذات الله وصفاته وما إلى ذلك، ومن تلك الفوائد: وجود الله تعالى ظاهرٌ وبينٌ ... جاء في تعريف النور: ظاهرٌ بنفسه، ومظهرٌ لغيره. إنّ الله تعالى هو مصدر

وجود عالم الخليقة... بناءً على كون المراد من النور معناه الكنائس والمجازي، أي نور الوجود؛ إذ العالم لولا إفاضة الوجود عليه من قبل الله سيندثر في ظلمات العدم المحض. إن نور الله ذاتي، وهو منزلة عن جميع أنواع الشوائب... ويقوم هذا المعنى على أساس مسألتين في تشبيه نور الله: كونه مصدر النور، من دون أن يكون دخل للعوامل الخارجية، فهو متوهج بذاته ولو لم تمسسه نار، مما يثبت أن نور الله منه وليس من سبب خارج ذاته، الأمر الذي يثبت حقيقة أن نور الله منزلة عن جميع الشوائب. إن نور الله في غاية الإضاءة والإنارة، ومجرد عن جميع أنواع الظلمة والحلكة. إن ذات الله حقيقة بعيدة المنال، ولا يمكن للبشر إدراك كنهها، وهذه الحقيقة تقوم على أساس هاتين النقطتين الموجودتين في تشبيه نور الله عز وجل. وبدلاً من تشبيه ذات الله تعالى، تم تشبيه إحدى صفاته. وهي النور. فيما الآية الشريفة في معرض التعريف بالله عز وجل. ونور الله - الذي هو أمر غير محسوس - تم تشبيهه بعدة أمور محسوسة يدركها الجميع؛ وعليه فإن ذات الله لا ينالها الإدراك، والذي يمكن إدراكه هو صفاته فقط. وهذا الإدراك إنما يتيسر في حدود التعرف على المحسوسات لا غير. وإمكان التعرف على صفات الله عن طريق التشبيه والتمثيل وما إلى ذلك. وعلم الله تعالى شامل لجميع ظواهر الكون. ومشية الله على هداية العالمين بنوره ناشئة من علمه الشمولي...^(١٥). كما وهناك مطالب متنوعة وردت في الفوائد الأخيرة.

٤- الاتجاه الاجتماعي

يمكن إرجاع نهضة الاتجاه الاجتماعي في تفسير القرآن إلى القرون المتأخرة والحركة الاجتماعية التي قادها السيد جمال الدين الأسدآبادي ومحمد عبده^(١٦). وإن تقاسير من قبيل: المنار، وفي ظلال القرآن، ومحاسن التأويل، والميزان، وتفسير نمونة، وبرتوي أز قرآن، والكاشف، ومن وحي القرآن، يمكن تصنيفها ضمن هذا الاتجاه^(١٧). وبعض خصائص هذا الاتجاه عبارة عن: معالجة الآيات التي تبين المسائل

الاجتماعية، والاهتمام بمشاكل المسلمين المعاصرة، والسعي إلى استنباط العقائد من القرآن الكريم، وعدم الإغراق في الاتجاه الفلسفي والمذهبي والأدبي والفقهي؛ والنزوع العصري في باب جهاد الأعداء والمستعمرين وأسباب الوحدة و... والتأكيد على التعاليم التربوية والإرشادية في القرآن الكريم، وإعطاء العقل أهمية في التفسير والاستفادة من الأسلوب العلمي؛ وتجنب الإسرائيليات والروايات الخرافية والموضوعة وما شابه ذلك؛ والاستفادة من البيان الممتع والبسيط والموجز والذي يفهمه الجميع؛ والإجابة عن شبهات وإشكالات المخالفين للقرآن والإسلام؛ وتأويل ظواهر الآيات المنافية للحقائق الشرعية والعقلية والعلمية الثابتة، أو الذهاب إلى مجازيتها؛ والتمتع بروح اجتماعية والتفسير من الزاوية الاجتماعية دون الفردية؛ وتطبيق السنن الاجتماعية للآيات القرآنية على حاجات العصر، والابتعاد عن التقليد في التفسير^(٤٨).

ومن خلال مطالعة دقيقة في تفسير راهنما، ندرك أن هذا الاتجاه قد حظي من قبل المحققين باهتمام أكبر مما حظيت به سائر الاتجاهات الأخرى.

إن الظروف التي يعيشها الباحثون نتيجة لانتصار الثورة وإقامة الحكومة الإسلامية في إيران تبين مدى الحاجة إلى إجابة الدين عن آلاف الأسئلة العملية والنظرية في مجال الدين ورقعته. ويتم إبراز هذا التفسير في وقت تمس فيه الحاجة أكثر من أي وقت مضى للحصول على أجوبة القرآن سياسياً واجتماعياً وأخلاقياً واقتصادياً وعلمياً...^(٤٩)، من هنا فقد سعى تفسير راهنما إلى الإجابة عن الحاجات المتنوعة، وبعض الآيات التي لوحظ فيها الاتجاه الاجتماعي لهذا التفسير أكثر من غيرها عبارة عن:

١. آل عمران: ٢٠٠ و... العلاقات الاجتماعية بين المسلمين، الصبر والثبات أمام العدو، عوامل صمود المسلمين..

٢. آل عمران: ١٠٣، اتحاد الأمة الإسلامية، وقد ذكر هنا ٣٣ فائدة.

٣. النساء: ١٠١... العلاقات بالأمم الأخرى، ومبدأ نفي السبيل في السياسة الخارجية.

٤ - الآيات المتعلقة بالحكومة الإسلامية.

٥ - الآيات المتعلقة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٦ - الآيات المتعلقة بالصحة الفردية والاجتماعية، والمساعدة والتعاون، والجهاد الإسلامي، وحرية الإنسان، ومكافحة الاستبداد، والتربية والتعليم وغير ذلك، كما في الآية ٢٠٠ من آل عمران التي تبين أنموذجاً من هذه الآيات المذكورة.

٧ - آل عمران: ١١٨ - ١٢٣، علاقة المسلمين بالأجانب، ضرورة الحذر واليقظة في التعامل مع الأعداء.

٨ - المؤمنون: ٢٤، الأنبياء واصطفاف الطبقة الأرستقراطية ضدّهم، عقيدة الكفار بالأنبياء، مخالفة الأشراف والأثرياء لنوح...

٩ - النور: ٥٥، السلم الاجتماعي، عوامل الانتصار، مقدّمات الحاكمية، خلافة الأنبياء، حكومة الشيعة، الوعد بالنصر، أمان الصالحين، وما إلى ذلك.

ونكتفي بذكر مثال واحد لذلك؛ فقد جاء في تفسير راهنما - على هامش قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ — خمس وعشرون فائدة تحكي جميعها عن الاتجاه الاجتماعي بمختلف أبعاده، منها عناوين الفوائد التالية: المؤمنون مكلفون بالثبات والمقاومة أمام الأعداء الألداء. لزوم الصبر والتحمل المتقابل في صفوف المسلمين... يجب على المسلمين ترغيب بعضهم بعضاً بالصبر والثبات في مواجهة المشاكل. يجب على المؤمنين إقامة العلاقات والتسويق فيما بينهم. حفظ وحماية الثغور وحدود البلاد الإسلامية واجب على جميع المؤمنين. الصبر والتصبر مقدمة لتوثيق الأواصر الاجتماعية. إقامة الأواصر الاجتماعية في المجتمع الإيماني علامة على تقوى المؤمنين. إن انتصار وسعادة المجتمع الإيماني رهْنُ بإقامة العلاقات فيما بينه. الابتعاد عن المعاصي، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاستعداد للدفاع عن الأئمة، واجب على المؤمنين. وقد قال الإمام الصادق عليه السلام^(٥٠) بشأن اصبروا: «عن المعاصي»، وبشأن واتقوا: «مروا بالمعروف وانهاوا عن المنكر»، وبشأن رابطوا: «نحن الرباط الأدنى؛ فمن جاهد

عنًا فقد جاهد عن النبي^(٥١). وكذلك اهتم المحققون تحت عنوان المجتمع بتأثير العلاقات الاجتماعية والدينية و..

٥- الاتجاه التاريخي —

تظهر الحقائق الموجودة أنَّ عدداً كبيراً من الآيات القرآنية تختصّ بموضوع التاريخ، حتى ذهب بعض الباحثين إلى أن المطالب التاريخيَّة تشكّل ثلاثة أرباع القرآن الكريم^(٥٢). وتفسير راهنما وإن لم يخلُ من هذا الاتجاه، إلا أننا نشهد فيما يتعلّق بأبعاد التاريخ الأربعة: فلسفة التاريخ، وعملية التأريخ، والمجتمع التاريخي، وأساليب التاريخ، ضعفاً ملحوظاً بسبب غياب المختصّين في هذا المجال، فمثلاً لم يتم بحث انقطاع الوحي في أوّل سورة الضحى، وهو عنوان تاريخي، وإنما عُرِض في ذيل عنوان الوحي، في حين أن هذه الاستفادة المذكورة بنفسها من الآية الشريفة ناظرة إلى حدث تاريخي، إذ هو حدث انقطاع الوحي، وترتبت عليه أمور أخرى أيضاً، من قبيل تشبّث المشركين بهذا الحدث كذريعة لهم وما شابه ذلك^(٥٣).

والأنموذج الآخر مقارنة سورة طه بسورة القصص، حيث تجد في سورة القصص تأصيلاً للمجتمع، بينما تجد الكلام في سورة طه يتمحور حول شخصية موسى عليه السلام، بعبارة أخرى لو تمّت دراسة الآيات بوصفها مجموعة واحدة، لكان بالإمكان الإفادة من أجزاء متعددة من الاتجاه التاريخي. وطبعاً ذكر المحققون بعض الفوائد أحياناً، كصناعة الزجاج واستخدامه للإضاءة في عصر البعثة من خلال الالتفات إلى الآية: ٣٥ من سورة النور: ﴿الْيَصْبِاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾^(٥٤)، وهناك فائدة بيّنها هذا التفسير بشأن الآية: ٢١٣ من سورة البقرة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٥٥)، وذلك في الفائدة رقم ٤٥.

طبعاً من الواضح أننا لو توقعنا من تفسير راهنما الإحاطة بجميع النواحي التاريخية وتشعباتها، فعندها سيتحوّل هذا التفسير من كونه جامعاً للاتجاهات المتنوّعة إلى تفسير تخصصي ذي منهج وأسلوب تاريخي بحت وليس ذا اتجاه تاريخي، وهذا ما لا يدعيه

المحققون في هذا التفسير أنفسهم.

د- أسلوب التأليف —

يُظهر أسلوب التأليف اتجاهات متعددة أيضاً، من هنا كان لابد من الاهتمام به في إطار الاتجاهات. وفي هذا البحث يمكن الإشارة إلى الموارد الآتية:

١ - الترتيبي أو الموضوعي: توصل مركز الثقافة والمعارف القرآنية ضمن بيان معنى التفسير الترتيبي والموضوعي وأساليب كل منهما إلى أن الأسلوب الآخر هو التفسير الموضوعي المنهجي. وهذا الأسلوب - خلافاً للأساليب السابقة التي تنظر إلى مسائل كل موضوع واحدة واحدة كدائرة معارف موضوعية ويحققها بمعزل عن ارتباطها ببعضها - يدرس الموضوعات على أساس الترابط والانسجام القائم بينها، ويتم عرضها بشكل منهجي ومنظم... وقد سمي هذا الأسلوب في مصطلح آخر بالتفسير الموضوعي الإرتباطي^(٥٥).

وقد اتبع تفسير راهنما الأسلوب الترتيبي من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، مع فارق أنه يأتي بالآية أولاً، ثم المطالب المستفادة من ظاهرها أو من الروايات أو من سبب النزول، وإذا مست الحاجة إلى الاستدلال، بين ذلك باختصار، وفي ختام كل قسم من الآيات تذكر فهرسة لعناوين موضوعات تلك الآية.

٢ - مختصر أو مطول: بلغ مجموع هذا التفسير عشرين مجلداً. والحقيقة أنه لو أريد لهذا التفسير أن يكتب كسائر الكتب التفسيرية الأخرى، مع المحافظة ضمناً على هذا الحجم من المعلومات، فلربما بلغ حجمه أكثر بكثير مما هو عليه الآن. وهذا ما يؤكد الاختصار في بيان بعض المطالب الذي أدى أحياناً إلى عدم اكتمال بعض الجمل. وعليه ينبغي عدّ هذا التفسير ذي العشرين مجلداً تفسيراً مطولاً من حيث الحجم، مختصراً من حيث النص المكتوب.

٣ - الشرح المتنّي أو المزجي: تمّ فصل متن الآيات في تفسير راهنما عن الترجمات.

نصوص معاصرة - السنة الثالثة - العدد الثاني عشر - ذيف ٢٠٠٧ م

كما امتازت النكات التفسيرية من الترجمات أيضاً. وطبعاً هناك بعض النكات التفسيرية التي هي ذات الترجمات ولا يمكن تسميتها نكاتاً تفسيرية.

٤ - كامل أو ناقص: إن هذا التفسير تفسير كامل وشامل لجميع القرآن الكريم.

٥ - جامع أو متخصص: يقع تفسير راهنما ضمن التفاسير الجامعة، من هنا نشاهد فيه مختلف الاتجاهات. وهناك من ينطلق من الخلط بين هذين الموضوعين فيشكل على هذا التفسير، ويريد منه أن يكون تفسيراً مختصاً في موضوع واحد كالتاريخ مثلاً، يسلط الضوء على جميع زوايا علم التأريخ وأبعاده، ويعمل على استعراضها ودراستها من خلال القرآن الكريم. ولو ظهر مثل هذا التفسير الذي يكون جامعاً ومع ذلك يلاحظ جميع العلوم في عملية التفسير؛ فنسلك عليه عنوان جامع التخصصات، وحتى الآن لم يدع شخص كتابة مثل هذا التفسير.

٦ - الإرجاع إلى المصادر: فيما يتعلق بآراء المفسرين لم يتم الرجوع إلى المصادر بشكل كاف، وإن تمت الإشارة في بداية الكتاب إلى المصادر التفسيرية.

٧ - ترجمة الآيات: أضيفت الترجمة الفارسية إلى الآيات ابتداءً من الجزء الثامن فما بعد، وقد لجأ المحققون إلى ذلك تلبية للأهداف كحاجة المخاطب إلى الترجمة، وللإستغناء عن الرجوع إلى القرآن المترجم. وطبعاً فإن النظر في ترجمة الآيات وتطبيقها على التفاسير المذكورة وضبط دقتها تستلزم جهداً مفصلاً؛ إذ ذكر المحققون أحياناً مطالب مختلفة في بعض الأمور التفسيرية، دون أن يذهبوا إلى اختيار موقف ملحوظ، ويبدو من الصعب إبراز ترجمة دقيقة لتفسير راهنما بعنوان الترجمة، ويبدو عدم الانسجام طبيعياً.

٨ - ترجمة الروايات: ونشاهد عدم الانسجام في هذا القسم أيضاً، فتارة ترى روايات مترجمة، بينما يقتصر تارة أخرى على ذكر النص العربي فقط، وقد يكتفي بترجمة جزء من الروايات أحياناً، وطبعاً أخذت الروايات وترجمتها بشكل منفصل مكانها من التفسير تدريجاً، واتخذت طابعاً تكاملياً.

٩ - تبسيط العبارة: كتب هذا التفسير بلغة يفهمها الجميع، وحتى الآيات المتضمنة

للأبحاث الفلسفية ... كتبت بأسلوب مبسط قابل للفهم.

١٠ - تفكيك الموضوعات.

١١ - تقديم فهرس متنوّعة.

١٢ - إظهار الفوائد؛ حيث تظهر الفوائد ما يمكن استفادته من المطالب من كلّ آية كمّاً وكيفاً، وقد تم تنظيم هذه الفوائد بعد كلّ آية مع ذكر العناوين الفرعية والأصلية على الترتيب الأبجدي، وفي ختام كلّ مجلد تتم فهرسة مطالب السور بالتفصيل. وطبعاً لا تخلو الفوائد المذكورة من إشكال^(٥٦)، ولا شك في أن إعادة التفكير في الآيات سيفتح آفاق جديدة وتكتشف فوائد أكثر. فمثلاً أرى في ذيل الآية التاسعة من سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيسُوت﴾ إمكانية إضافة إجابة الله عن شبهات الكفار، إلى العناوين الثلاثة عشر التي ذكرت لهذه الآية، حيث ينزل الله على رسوله آية ليجيب بها الكفار، كما يمكن إضافة توعية الناس وتبئهم إلى شبهات الكفار والجواب عنها، وإلى جانب هذين العنوانين ومع إلغاء خصوصية المشركين والكفار يمكن الاستفادة إجابة الجاهلين والذين تطرأ عليهم الشبهات من هذه الآية أيضاً؛ وكذلك يستفاد من إجابة الله لأصحاب الشبهات والمجتمع الإسلامي أن القرآن يريد من الجاهلين أن يستمعوا لجوابه. زمايه تكون لهذه الآية رسالة للكفار والمشركين والجاهلين أيضاً ويمكن إضافتها لتلك العناوين، وبعبارة أخرى: يتوقع القرآن من ذوي الشبهات والجاهلين، أن يقبلوا القرآن كمجيب، وكذلك لزوم الإجابة عن الشبهات حتى ولو كان أصحابها من المعاندين. فهذه الآية توفر الحصانة للآخرين. وهذه جميعها تحكي عن عظمة هذه الآيات الإلهية وسعة الموضوعات والأبواب التي لم تطرق فيما يتعلق بهذا الكتاب السماوي.

الهوامش

- (١) تهدف هذه المقالة إلى التعريف بالاتجاهات التفسيرية في هذا الكتاب، ولنقد هذه الاتجاهات موضع آخر، وهو كتاب تفسير راهنما للشيخ علي أكبر هاشمي رفسنجاني وبعض الباحثين.
- (٢) مذاهب التفسير الإسلامي، لجولدسيهر، ترجمة: عبد الحليم النجار، طبع مصر، عام ١٩٥٥م.
- (٣) التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي.
- (٤) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، لمحمد هادي معرفت، الجامعة الرضوية، ١٤١٨هـ.
- (٥) روشها وكرايشهاي تفسيري، للدكتور محمد علي رضائي إصفهاني.
- (٦) يعتبر تفسير الكشف للزمخشري أنموذجاً من نماذج تأثير الانتماء المعتزلي في التفسير.
- (٧) تفسير راهنما: ٢٦ - ٣١، مقالة: تفسير راهنما، وطرق الوصول إلى بواطنه، لمحمد هادي معرفت.
- (٨) تفسير راهنما أز نكاه قرآن بجوهان: ٣٠.
- (٩) تفسير راهنما ١: ٧٣.
- (١٠) المصدر نفسه.
- (١١) البلاغي، آلاء الرحمن: ٤٤.
- (١٢) غاية المرام: ٥٢٠، الباب ٢٩.
- (١٣) تفسير راهنما ١: ٦٩.
- (١٤) الكافي ١: ٢٨٩، ح ٤؛ ونور الثقلين ١: ٥٨٧، ح ٢٥.
- (١٥) تفسير راهنما ٤: ٢٣٩.
- (١٦) مرتضى مطهري، مدخل إلى العلوم الإسلامية، قسم الكلام والعرفان: ٤٢؛ والذهبي، التفسير والمفسرون ١: ٣٦٩ - ٣٧٠، ٣٨٥.
- (١٧) المصدر نفسه: ٢٧ - ٥٠؛ والتفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ٢: ٤٠٦، ٤١٤، ٤١٥.
- (١٨) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ٢: ٤٣٠؛ والتفسير والمفسرون ١: ٣٨٩.
- (١٩) التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ٢: ٤١٤، ٤١٥.
- (٢٠) روشها وكرايشهاي تفسيري، لمحمد علي رضائي الإصفهاني.

- (٢١) جولدتسيهر، مذاهب التفسير الإسلامي: ١٢٣.
- (٢٢) تفسير راهنما ١٠: ٢١١ - ٢١٤.
- (٢٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُنَادِي الصَّاحُّونَ﴾.
- (٢٤) مذاهب التفسير الإسلامي: ١٢٥ - ١٢٧.
- (٢٥) تفسير راهنما ١٩: ٥٦٥، ٥٦٦، جدير بالذكر أن العلامة الطباطبائي يفسر ذلك بالنظر القلبي ورؤية القلب بحقائق الإيمان، فانظر الميزان، ذيل الآية.
- (٢٦) الكشف ٤: ٦٦٢.
- (٢٧) تفسير راهنما ١٩: ٥٦٥ - ٥٦٦.
- (٢٨) الفاضل المقداد، كتر العرفان ١: ٥، وقد بلغ بعض هذه الآيات من ٥٠٠ إلى ٢٠٠٠ آية.
- (٢٩) كما في الآية ٢٣٣ ﴿وَالْوَلَدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ والآية ١٥: ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾، حيث قام الإمام علي بتفسيرها لعمر بن الخطاب.
- (٣٠) السبكي والسائس والبريري، تاريخ التشريع الإسلامي: ٢٨١؛ والتفسير والمفسرون ٢: ٤٣٤.
- (٣١) النساء: ٢٤.
- (٣٢) الأنفال: ٤١.
- (٣٣) المائدة: ٦٥.
- (٣٤) تفسير راهنما ٣: ٢٣٨، ٢٣٨.
- (٣٥) الكافي ٥: ٤٤٨، ح ١؛ ونور الثقلين ١: ٤٦٧، ح ١٧١؛ وتفسير البرهان ٣: ٣٦٠، ح ١.
- (٣٦) تفسير راهنما ٣: ٢٣٤ - ٢٣٨.
- (٣٧) الكافي ٣: ٢٦، ح ٥؛ وتفسير البرهان ١: ٤٥١، ح ٧.
- (٣٨) تفسير راهنما ٤: ٢٥٧.
- (٣٩) التهذيب ١: ٧، ح ٩، ب ١؛ وتفسير البرهان ١: ٤٥٠، ح ١.
- (٤٠) تفسير راهنما ٤: ٢٦٣.
- (٤١) نقل الدكتور الذهبي في الجزء الثاني من كتابه: التفسير والمفسرون، عن بعض معاصريه ممن يذهب إلى أن الاتجاه نوع من التأويل الخطير، وذهب بعض إلى كونه من الذنوب الكبيرة! أصول التفسير وقواعده: ٢٣٤.
- (٤٢) المصدر نفسه، نقلاً عن كتاب روشها وكرايشهاي تفسيري: ٣٩٩.

- (٤٣) دائرة المعارف الشيعية ٣: ١٨٣، ١٨٥، نقلاً عن روشها وكرايشهاي تفسيري: ٤٠١.
- (٤٤) المصدر نفسه: ٤٠٢.
- (٤٥) تفسير راهنما ١٢: ٢٧١ - ٢٧٤.
- (٤٦) يرى الشيخ محمد هادي معرفت أن الشيخ محمد عبده هو رائد هذه المدرسة، التفسير والمفسرون ٢: ٤٥٣.
- (٤٧) للذهبي انتقادات على هذا الاتجاه، انظر: التفسير والمفسرون ٢: ٥٤٧ - ٥٥٠؛ ومقابله يؤيد الشيخ معرفت هذا الاتجاه، راجع: التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب ٢: ٤٥٣.
- (٤٨) روشها وكرايشهاي تفسيري: ٤٥.
- (٥٠) قال الشيخ السبحاني: لابد من القول فيما يتعلق بتفسير راهنما: يجب البحث عن جذور هذه الحركة في النهضة التي بدأها العلامة الطباطبائي؛ حيث عالج قبل غيره مسائل غفل عنها الآخرون، فبحث في تفسير الميزان المسائل الاجتماعية وما شابهها، وقد أدت هذه النهضة إلى انتعاش حركات تفسيرية أخرى في الحوزة العلمية، وظهرت تجمعات لتفسير القرآن الكريم، ومن تلك التجمعات التفسيرية، مجموعة الباحثين في تفسير راهنما التي أثمرت مثل هذا التفسير المبارك، انظر: تفسير راهنما در نگاه قرآن بجوهان: ١٢.
- (٥٠) تفسير العياشي ١: ٢١٢، ح ١٧٩؛ وبحار الأنوار ٢٤: ٢١٦، ح ٨.
- (٥١) تفسير راهنما ٣: ٢٦٧ - ٢٦٩.
- (٥٢) عبد المجيد معادياخ، مدخل إلى قراءة أسلوب جديد في تفسير القرآن: تفسير راهنما أز نگاه ديكران: ٤٧.
- (٥٣) المصدر نفسه: ٤٦ - ٤٨.
- (٥٤) تفسير راهنما ١٢: ٢٧٣، ٢٧٥.
- (٥٥) المصدر نفسه ١: ٤٧، ٤٨.
- (٥٦) درآمدي بر بازخواني روشي نوين در تفسير قرآن: ٩٣ فما بعد.

مجالس العزاء الحسيني.. بدعة أم سنة؟

(*)

الشيخ رضا باباني

ترجمة: محمد عبدالرزاق

مدخل —

إن إقامة العزاء والبكاء على الحسين عليه السلام قضية جوهرية نابعة من صميم الإسلام، ومع أنّ هذه السنّة المعنوية الروحية مما اشتهرت به الشيعة، إلا أنّ أدلتها لم تقتصر على مذهب خاص؛ حيث يمكن الاستدلال عليها بجملة من الفتاوى والنصوص الماثورة عن مختلف المذاهب الإسلامية. ولن نتطرق هنا للأحاديث والأخبار المثبتة في كتب الشيعة؛ فلا ينبغي الاستدلال على أسس مذهب ما من مصادره، ناهيك أنّ جلّ ما يرتبط بالنصوص والروايات الشيعية الدالة على صحّة إقامة العزاء الحسيني قد جمعت في موسوعات مختلفة، ولا حاجة لذكرها في هذه العجالة، أمّا موضوع البحث الحالي فهو الردّ على «تبديع مسألة العزاء الحسيني»، ويمكننا أن نبدأ الحديث في ذلك من محطّاته البعيدة من قبيل «فوائد البكاء» و«آثار إقامة العزاء»، لكننا سنسعى للولوج من المحطّات الأولى، متخلّين عن جملة من المقدمات، على أهميتها.

العزاء الحسيني وانطباق مفهوم الشعائر الإلهية —

إذا لم تكن إقامة العزاء والبكاء على مصائب الأولياء من أصول الدين أو

(*) باحث، ومصحّح معروف.

فروعه، فليست بمنأى عنهما، والخطوة الأولى هي إثبات أهمية هذه السنّة المتأصلة في الأيديولوجيا الدينية، وتبيين مكانة إقامة العزاء على الأولياء - بشكل عام - وعلى الإمام الحسين - بشكل خاص - في الإسلام، وإثبات ذلك عند الشيعة سهل المنال لن يحتاج في بحثه إلى عناء طويل؛ لأنّ من لوازم أصل الإمامة إحياء ذكر الأئمة، وهو لا يتحقق إلا بموالاتهم والتبرّي من أعدائهم، ولا داعي للتذكير بأنّ إقامة العزاء الحسيني هو من أبرز مصاديق التوليّ والتبري. إذا فالبكاء والعزاء نقطة البداية في إحياء أصل من أصول الدين، وهو الإمامة، فتقوى بذلك شوكته.

لعلّ عنوان «تعظيم الشعائر الإلهية» - علاوة على ما تقدم - هو الأكثر انسجاماً من بين النصوص القرآنية مع فكرة المراسم الحسينية: ﴿وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: ٣٢)؛ فالشعائر جمع شعيرة بمعنى العلامة، وقد ذكر القرآن بعض مصاديقها مثل «الصفاء» و«المروة»^(١) و«ذبح الهدي في منى»^(٢)، فإذا كانت هذه المناسك مقدّسة ومن علامات الباري لمجرّد انتسابها إليه وتعلّقها به، فمن باب أولى أن يكون أولياء الله من مصاديق تلك الشعائر الإلهية.

ثم إنّ لتعظيم الشعائر سبلاً متعدّدة، منها الفرح لفرحهم والحزن لحزنهم، فإذا كانت الجمادات من قبيل الكعبة والصفاء والمروة ومنى وعرفات جديرة بالتقديس والاحترام؛ لارتباطها بمفهوم شعائر الله، أفلا يُعتبر تكريم أوليائه وأحبائه تعظيماً لهذه الشعائر؟ يضاف إلى ذلك، أنّ وصية الرسول ﷺ بالإحسان لذويه تمثل دليلاً آخر على صدقية مراسم العزاء، فقد جاء في القرآن الكريم على لسان النبي ﷺ وخطاباً للمؤمنين: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ (الشورى: ٢٣)، إذا فقد اقترن أجر الرسالة بمودة ذوي قربي الرسول، والمودة متجليّة في البكاء على مصائبهم والابتهاج بأفراحهم.

وليس الحزن والبكاء من الأمور الاختيارية حتى تشملهما أحكام الأمر أو النهي، فالإنسان بطبيعته لا يبكي عن سبق إرادة وتصميم، كما أنه لن يجد مناصاً من البكاء إذا توفرت مقدّماته؛ وعليه فالنهي عن البكاء أمرٌ عبثي من قبيل النهي عن تصرّف الزمن، نعم، قد تكون شروط البكاء وتوفير أرضيته المساعدة مما يمكن للإنسان التحكّم به، فيمكن أن تخضع لأحكام الأمر أو النهي؛ إذا فالمراد

من النهي عن البكاء النهي عن مقدماته.

ويندرج حكم البكاء وإقامة العزاء على الموتى - من حيث المبدأ - تحت مبدأ الإباحة، فلا يشملُه موضوعُ من مواضع النواهي الشرعية، وبالإضافة إلى السيرة النبوية وأخبارها هناك نصوص روائية عديدة تؤيد إباحة هذا النوع من البكاء في تاريخ الإسلام.

نعم، روى البخاري في صحيحه أحاديث تدلُّ على أن بكاء أهل الميت سببٌ في عذابه: «إِنَّ الْمَيِّتَ لَيُعَذَّبُ بِبِكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»^(٣)، وقد وردت هذه الرواية عن الخليفة الثاني نقلاً عن الرسول ﷺ، في معرض نهيه (عائشة) عن البكاء في مأتم النبي ﷺ.

وثمة رواية أخرى تُنسب إليه ﷺ أشار فيها إلى تعرُّض الميت للعذاب نتيجة النوح عليه: «يُعَذَّبُ فِي قَبْرِهِ بِالنِّياحَةِ عَلَيْهِ»^(٤)، وتثقل هذه الرواية من طريق عبد الله بن عمر في حوارٍ مع عائشة في مأتم زوجها ﷺ. وقد ذكر في كتب الأخبار ردَّ عائشة على الخليفة الثاني وابنه بالآية (١٦٤) من سورة الأنعام: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾، فهي تريد أن تقول لهما: بأنه حتى لو كان البكاء ذنباً فلا جريرة على الميت، وبما أن هذا الحديث مخالف للقواعد العقلية والعدل الإلهي، فلن يكون - بلا شك - من كلام الرسول ﷺ.

يقول النووي - من علماء الشافعية - تعليقاً على هذه الأحاديث: «هذه الروايات كلّها من رواية عمر بن الخطاب وابنه عبد الله، وأنكرت عائشة عليهما ونسبتهما إلى النسيان والاشتباه، واحتجّت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾»^(٥).

وكتب السيد عبد الحسين شرف الدين بعد نقله كلام النووي: «وأنكر ابن عباس هذه الروايات، واحتجَّ على خطأ راويها، والتفصيل في الصحيحين وشروحهما، وما زالت عائشة وعمر في هذه المسألة على طريفة نقيض، حتى أخرج الطبري في حوادث سنة ١٣ عند ذكر وفاة أبي بكر في الجزء الرابع من تاريخه بالإسناد إلى سعيد المسيب قال: لما توفّي أبو بكر أقامت عليه عائشة النوح، فأقبل عمر بن الخطاب حتى أقام ببابها، فنهاه عن البكاء على أبي بكر، فأبين أن ينتهين، وقال عمر لهشام بن الوليد: أدخل فأخرج إليّ ابنة أبي قحافة، فقالت عائشة لهشام حين سمعت

ذلك من عمر: إني أحرم عليك بيتي، فقال عمر لهشام: أدخل فقد أذنت لك، فدخل هشام فأخرج أم فروة أخت أبي بكر إلى عمر، فعلاها بالدرّة فضربها ضربات، فتفرق النّوح حين سمعوا بذلك» (٦).

ومن الأحاديث المتقدّمة يخرج صاحب (المجالس الفاخرة) بالنتيجة التالية: «كأنّه لم يعلم إقرار النبي ﷺ عمل نساء الأنصار في البكاء على موتاهنّ ولم يبلغه قوله ﷺ: لكن حمزة لا بواكي له. وقوله ﷺ: على مثل جعفر فلبك البواكي، ولعلّه سهى نهي النبي ﷺ إياه عن ضرب البواكي يوم ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ» (٧).

علاوة على ما تقدّم، فإنّ كتب التاريخ والسير مليئة بأفعال النبي وقوله وتقريره على صحّة البكاء في عزاء المؤمنين، منها بكاءه ﷺ يوم توفّي عمّه أبو طالب (٨)، وهكذا يوم استشهاد الحمزة (٩) وجعفر (١٠) وزيد بن الحارثة (١١) وعبد بن رواحة (١٢)؛ فقد روت المصادر شدة بكاء الرسول على حمزة حتى أغمي عليه (١٣)، كما بكى أيضاً على جنازة ولده إبراهيم، فسأله عبدالرحمن بن عوف قائلاً: «وَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟» فكان جوابه رداً على كل أولئك الذين يرون في البكاء وإقامة العزاء بدعة من البدع: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا»، إذا فالعين تدمع لحزن القلب، ولا يحزن القلب دون أن تذرف العين ماءها (١٤).

وهناك روايات أيضاً تشير لبكاء الرسول على قبر أمّه آمنة (١٥)، ويذكر الحاكم النيسابوري في مستدرّكه بكاء فاطمة على قبر الحمزة كلّ يوم جمعة: «كَانَتْ فَاطِمَةُ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) تَبْكِي وَتَصَلِّي عِنْدَ قَبْرِ عَمِّهَا الْحَمْزَةَ كُلَّ يَوْمٍ جُمُعَةٍ» (١٦).

لقد باتت هذه السنّة الإنسانيّة والدينيّة متعارفاً عليها في زمن الرسول ﷺ، بحيث لم يبق مجال لأحد أن يشكّك في جوازها أو حرمتها فيسأل عنها؛ حيث يروي المؤرخون توافد المسلمين على قبر الرسول وبكائه بكاءً موجعاً، دون أن يعترضهم أحد من الصحابة أو التابعين فينهى عن ذلك. إنّ هذه الروايات الجمة والسيرة المنقولة مكّنت الرواة والمحقّقين من ردّ روايات المنع أو الجمع بينها إن ساعدت الأدلّة على ذلك (١٧).

معارضو العزاء الحسيني، الأدلة والمنطقات —

لم يكن المخالفون لمسألة البكاء على سيد الشهداء عليه السلام على شاكلة واحدة، بل تعددت مشاربهم وانقسموا إلى مجموعات ثلاث:

المجموعة الأولى: وهم الذين انطلقوا من اتجاههم السلفي، فنسجوا أدلتهم الشرعية والتاريخية ضد إباحة البكاء على الحسين عليه السلام.

المجموعة الثانية: وهم الذين جاء رفضهم للموضوع حفاظاً على مصالحهم السياسية.

المجموعة الثالثة: وهم أرباب التصوف والعرفان.

وستتناول كل مجموعة بالنقد والتحليل:

١- الاتجاه السلفي، نظرية المخالفة الشرعية —

يعتبر المذهب الوهابي وأتباع ابن تيمية مسألة البكاء على الحسين عليه السلام أو غيره من الموتى والشهداء أمراً مخالفاً للشرع والدين، وأنه بدعة فيه وخروج على السنة النبوية وسيرة السلف؛ فقد بذل ابن تيمية - من علماء الحنابلة - قصارى جهوده للوقوف بوجه العقائد الشيعية وتفنيدها، وذلك عن طريق تفسير بعض الآيات ونقل جملة من الروايات، ثم جاء من بعده تلميذه «ابن القيم» فنشر آراءه وزاد من الدفاع عنها في كتابه «زاد المعاد في هدى خير العباد»، ومنذ ذلك الوقت بدأت مؤلفات الشيعة والسنة تدور حول نقد ورد أو دعم وتأييد أفكار ابن تيمية، فعلى صعيد علماء الشيعة تجدر الإشارة إلى كتاب «إحقاق الحق» للقاضي نور الله الشوشتري، و«عبقات الأنوار» لمير حامد حسين، و«الغدير» للعلامة الأميني، و«المراجعات» للسيد شرف الدين. ولعلماء السنة أيضاً تأليفات عديدة في رد تلك الأفكار لا يسع المجال لإحصائها.

على كل حال، يبقى ابن تيمية وأتباعه وأبرزهم محمد عبد الوهاب (١١١٥ -

١٢٠٦هـ) من أشد المخالفين لموضوع البكاء وإقامة عزاء سيد الشهداء عليه السلام.

لقد قدم علماء وكتاب الشيعة والسنة نقوداً عديدة على المعتقدات السلفية بأدلة بيّنة من الكتاب والسنة، مما لم يُبق حاجة للخوض في تفاصيلها هنا. وما نريد

إضافته هنا هو أنّ مواقف السلفية ونزاعاتهم وتحريمهم لمواضيع البكاء والتوسّل والزيارة وطلب الشفاعة، ذلك كلّ كان في حقيقته مخالفةً صريحةً لجوانب مهمّة ومسلّمة في الشريعة والقرآن والسنة؛ فلقد تمسّك ابن تيمية وأتباعه في تثبيت عقائدهم ببعض الأدلّة الضعيفة من سيرة السلف، وإلحكام تلك الأفكار كان عليهم تجاوز جملة من أخبار الرسول ﷺ وسيرته.

وأهم ما توصّلت إليه هذه الفرقة بخصوص البكاء على الموتى والشهداء كونه بدعة لا دليل شرعي أو نصّي من سيرة السلف يؤيّد، ومعلوم أنّ ردّ ذلك متحقّق بمجرد إثبات نصّ معتبر أو حادثة تاريخية تروي البكاء على أحد الموتى أو الشهداء، والتاريخ الإسلامي بمصادره الأصلية يذكر لنا نماذج عديدة على ذلك، من قبيل بكاء الأولياء والأنبياء على بعض الموتى والشهداء. وتجدر الإشارة إلى أنّ هذه الفرقة تقول بالحرمة، وهو ما يحتاج إلى أكثر من دليل على ثبوته. أما من يقول بالإباحة - وهي الأصل - فيكفيه في الإثبات أيّ دليل يقدّمه، فكيف إذا كانت هناك مئات وآلاف النصوص والأدلّة على ثبوت هذه القضية وإباحتها؟

من هنا، تقاطرت البحوث والردود على هذه الأفكار وخلفت لنا مكتبات العلماء الأعلام رصيذاً واسعاً في هذا المجال، ونحن بدورنا نحيل القارئ لمطالعة تلك الكتب أمثال: إحقاق الحق، والمراجعات، والمجالس الفاخرة.

٢- الاتجاه السياسي السلطوي، نظرية الرفض السياسي —

لم تأت مخالفة البعض لمراسم العزاء الحسيني نتيجة استدلالات شرعية أو نصيّة، بل كانوا يبرّرون منعهم لها بما فيها من العواقب السيئة (١) فرأوا في تجنّبها مصلحة في الحفاظ على وحدة الكيان الإسلامي؛ فإقامة المجالس الحسينية مدعاة لبث الفرقة والتنازع بين المسلمين؛ نظراً لما تتضمنه من طعن ولعن لبعض الصحابة، يقول ابن حجر في الصواعق المحرقة نقلاً عن الغزالي: «لا ينبغي للخطيب وغيره رواية مقتل الحسين، وأيضاً رواية ما يدور بين الصحابة من سجالات وخصام؛ لأنّ ذلك يستوجب الطعن بأعلام الإسلام والدين..» (١٨).

إذن - وفقاً لذلك - لا ينبغي لأحد الحديث عن مصائب أهل البيت وحادثة العبرات

(عاشوراء)؛ لأنّ هذا حديثٌ فيه قدحٌ بالصحابة وغيرهم من الرواة والأعلام في صدر الإسلام!

وفي زماننا الحاضر أيضاً، تتكرّر هذه الأفكار بعبائر مختلفة، فقد دعا الحرص أو الغفلة بعضهم إلى الاعتقاد بأنّ وحدة المسلمين تُحفظ بتجنّب مثل تلك الروايات من صدر الإسلام، بحيث وصل بهم الأمر إلى إهمال مبدأ «البراءة» بشكل كلي.

ومن الطبيعي أنّنا لا نرفض هذه الفكرة بجميع جوانبها؛ فقد تخضع المسألة لمتطلبات العصر فيحصل فيها تغيير، كإقامة الشيعة لمجالس العزاء بشكل أكثر اعتدالاً ومحافظة، لكن لا أنّ يجيء ذلك على حساب طمس الحقائق التاريخية والمسلمات الشرعية؛ فلم يترك الأئمة وعلماء الشيعة الأعلام ذكر مصائب أبي عبد الله عليه السلام حتى في أصعب ظروفهم السياسية، بل كانوا يقومون بواجبهم وفقاً لما يتناسب مع الظروف الحاكمة في عصرهم. نعم لا بد من الاعتراف بوجود بعض أشكال العزاء التي لم تعد على المذهب الشيعي إلا بالضرر، وهو ضرر ناتج عن شكل من أشكال العزاء لا عن أصل إقامته.

أمّا فيما يخص كلام الغزالي وتحريمه رواية مقتل الحسين عليه السلام على الخطباء بذريعة الإفتاء في صالح الدين والحفاظ على حرمة الصحابة، فيمكن مؤاخذته من حيثيات مختلفة، منها أنّنا لو سلّمنا باستدلاله للزم أن نعمل بخيار الصمت في كلّ خلاف ينشأ بين المسلمين يدعوهم للنزاع؛ تجنّباً للتصعيد والتناحر، وليست واقعة كربلاء إلا نتيجة لهكذا نوع من الصمت والمحابة، فلو أنّ المسلمين حزموا أمرهم ووقفوا مع جانب الحقّ لما حصل ما حصل في عاشوراء، ولو أنّ الشيعة اتبعوا - من بعد عاشوراء - ما صنعه المسلمون الأوائل في السقيفة والجمال وصفين لكان التاريخ أكثر ظلماً ولا متلات صفحاته بحكام الجور أكثر ممّا هو عليه الآن، فلم تأت مواقف الشيعة هذه عن اجتهادات شخصية، إنما استندوا في ذلك للعديد من الروايات التي تؤكد على ذكر مصائب الإمام الحسين عليه السلام وإحيائها.

ناهيك مما كان ولا تزال تمثله مجالس العزاء الحسيني من محاضرات ودروس للجماهير الجالسة تحت منابرها؛ فتشرح لهم عقائد دينهم وأحكامه الشرعية، إلى

غير ذلك من قصص التاريخ والسياسة في الدين وغيره، لقد كانت تلك المجالس منهاجاً لرجال التقوى والصلاح والباحثين عن الحق وأهله، ومنطلقاً للوقوف بوجه الباطل وأهله، فلا يعني تركها إلا تركاً لجانب مهم من نظام التعليم الديني؛ لذا علينا أن نتنبه للمحدثين بنا من أعداء الدين والإنسانية كي لا يفسدوا علينا ما قطعنا من أشواط وحققنا على طريق الوحدة والتضامن بيننا نحن المسلمين.

نعم، هناك بعض الأنماط من العزاء الحسيني تصبّ في صالح أعداء الإسلام ممن لا يرغب في بقاء الشيعة أو غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى.

من جهة أخرى، لم نشاهد الغزالي وغيره ممن يدوّن أمثال هذه النصائح في الرسائل والكتب قد عملوا بها وتفاضوا وسكتوا مع الفرق والمذاهب التي خاضوا معها نزاعاتهم الفكرية والدينية، فالمطلعون على مباحث علم الكلام وتاريخ الحضارة الإسلامية يلمسون عن كثب شدة تطرّف الغزالي وأتباعه في مواقفهم من الشيعة - لا سيما الإسماعيلية - في البحوث العقائدية، فلو كانت صفة التسامح مجدبة حقاً لما كان لديه دافع في تأليف ردوده على الروافض والقائلين بالإمامة ليقدمها بعد ذلك للخليفة العباسي أو الحاكم السلجوقي.

وعلى أية حال، نحن نؤمن بمبدأ الوحدة وأنها من أهم الأصول والفروع في الوقت الحاضر، لكننا لا نرى في ذكر مصاب الحسين وإقامة العزاء عليه - بشكل عام - منافاة لوحدة الإسلام وتلاحم أبنائه.

٢- الاتجاه الصوفي، نظرية المخالفة العرفانية —

هناك من يرى في إقامة العزاء على الميت - مهما علا شأنه - انحرافاً في العقيدة؛ معلّين ذلك بأنّ الإنسان عندما يموت وتتفصل روحه عن بدنه ينتقل إلى جوار ربّه، وهذا أمرٌ جدير بالابتهاج والفرح؛ لأنّ من يموت أو يستشهد يتحقّق أمّله المنشود، وهو الاتصال بالعالم المعنوي ومجاورة الحق، كما هي حال المسيحيين في ذكرى استشهاد عيسى عليه السلام واحتفالاتهم بها، فعمل المسيحيين هذا يدلّ على أنّ عيسى في شهادته قد حقّق نجاحاً باهراً، لا الخيبة والفشل.

ويعدّ جلال الدين الرومي من جملة القائلين بهذا الرأي من بين علماء المسلمين؛

فهو يروي في مثوياته - الكتاب السادس - قصة شاعرٍ دخل مدينة حلب يوم عاشوراء وتفاعلاً بطقوس أهلها في مثل هذا اليوم، وهي إقامة العزاء والمآتم على سيد الشهداء عليه السلام، وبما أن الشاعر لا يعرف صاحب العزاء، أخذ يسأل الناس عنه؛ علّه يشارك بشعره في رثائه، فقالوا له: اليوم ذكرى استشهاد الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: لكنّه مات قبل قرون، أما العزاء والمآتم فأقيموه على أنفسكم، فهو ليس بحاجة له؛ لأنه أسعد إنسان في مثل هذا اليوم؛ وأنشد يقول:

إبكوا على غفلتكم؛ لأنّ الجهل أبشع مراتب الموت

الروح تشمخ إن تخلّت عن الجسد

فلم نبكي ويعرونا السواد

إنّ هذا لسليل المصطفى صلى الله عليه وآله

بعروجه غنّوا وكونوا فرحين

فهو قد نال بذلك سعادةً أبدية

وتخلّى عن قيود الدنيا الغرور (١٩).

وتأسيساً على هذه الرؤية الغريبة، ينبغي لنا أن نبتهج ونفرح لكلّ من يهجر هذه الدنيا.

وللردّ على ذلك نقول:

أولاً: إنّ ما يذهب إليه المسيحيون في فرحهم على قصة عيسى عليه السلام ناتج عن خرافة اعتقدوا بها تقول بأنّ عيسى قُتل ليكفر عن خطاياهم، إذاً فموته باعثٌ على السعادة الآخوية عندهم.

ثانياً: إنّ في ذلك يكمن الفرق بين الدين الإسلامي والمسيحية المحرّفة؛ فالإسلام مذهبٌ اجتماعي بينما بقيت المسيحية داخل أطر النصّ الأخلاقية ومثالياتها. من جهة أخرى، تختلف قراءتنا لحادثة معينة بين النظرة الفردية والاجتماعية، فمن الناحية الفردية ينظر الإسلام لحادثة الحسين عليه السلام على أنه إمام حقّق بموته سعادة الدنيا والآخرة، وهو القائل: «خطأ الموت على وُلد آدم مخطئ القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني إلى أسلافي، اشتياق يعقوب إلى يوسف» (٢٠)، فقد تكامل الحسين بعناوين الشهيد والشهادة. يقول الإمام علي عليه السلام بعدما نزل على هامته سيفُ الخوارج:

«والله ما فجأني من الموت واردٌ كرهته أو طالع أنكرته، وما كنتُ إلا كقارب ورد وطالب وجد» (٢١).

لكن الإسلام له موقفه على الصعيد الآخر للحادثة، ولا يكتفي بالجانب الفردي والشخصي؛ فهل هناك فرق بين الرؤية الفردية والاجتماعية لحادثة عاشوراء؟ لقد مثلت عاشوراء بالنسبة لمرتكبيها مشهد الانحطاط الذي عاشه المجتمع الإسلامي آنذاك؛ لذا لا بد من إحياء هذه الذكرى الأليمة والاعتبار بها لئلا تتكرر مأساتها مرة أخرى (٢٢).

زد على ذلك، كيف للمسلمين أن لا يحزنوا لاستشهاد ابن بنت نبيهم، فيما الرسول ﷺ بكاه حياً يوم ولادته؟ أي قبل يوم عاشوراء بسنين عديدة؛ فوفقاً للأخبار والأحاديث الواردة في كتب الفريقين، ذكر الرسول حادثة الحسين متوجعاً في أكثر من موضع، فقد أخرج ابن سعد عن الشعبي قال: «مرّ عليّ بكربلاء عند مسيره إلى صفين فبكى حتى بلّ الأرض من دموعه فقال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو يبكي فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما يبكيك؟ قال: كان عندي جبرائيل آنفاً، وأخبرني بأنّ ولدي الحسين يقتل بشاطئ الفرات بموضع يقال له: كربلاء، ثم قبض جبرائيل قبضةً من ترابه وشممني إياها» (٢٣).

تأسيساً على ذلك، ليس موقف الشيعة في البكاء على الحسين ﷺ وإقامة مجالسه تجسيداً ومنطقاً من صميم الفكر الديني فحسب، بل إنّ معهم رصيذاً وافيّاً من السنّة والسيرة النبوية دليلاً على صحّة معتقدهم ورجحان عملهم.

وكلمتنا الأخيرة في هذا البحث هي: إنّ موضوع البكاء وإقامة العزاء من قبل الشيعة على سيد الشهداء، علاوة على صحته عقلاً وشرعاً، له أيضاً إيجابيات في الواقع العملي بما يصبّ في صالح الدين والمجتمع، وإن فلسفة مجالس العزاء الحسيني بحدّ ذاتها مقولة ومبدأ بحاجة لدراسات مستقلة ونظرة فاحصة، أما ما تطرّقنا له هنا فكان إثبات هذه المقولة في النصوص الدينية والردّ على منكريها.

* * *

الهوامش

- ١ - البقرة: ١٥٨.
- ٢ - الحج: ٣٦.
- ٣ - صحيح البخاري ٢: ٨٠.
- ٤ - سنن النسائي ٤: ١٤.
- ٥ - شرح صحيح مسلم المطبوع في هامش القسطلاني وذكريا الأنصاري، المجلد الخامس: ٣١٨، نقلاً عن عبدالحسين شرف الدين، المجالس الفاخرة: ١٧؛ ومنتهى الآمال، تاريخ حضرة سيد الشهداء، الخاتمة.
- ٦ - المجالس الفاخرة: ١٧.
- ٧ - المصدر نفسه.
- ٨ - يراجع: السيرة الحلبية، باب أبي طالب وخديجة: ٤٦٢، نقلاً عن المجالس الفاخرة: ١٣. وقد ذكر مؤلف المحاسن مصادر عديدة لهذا الخبر وما يليه.
- ٩ - السيرة الحلبية ٢: ٣٢٣، نقلاً عن المصدر نفسه.
- ١٠ - المصدر نفسه.
- ١١ - المصدر نفسه.
- ١٢ - المصدر نفسه.
- ١٣ - المصدر نفسه.
- ١٤ - صحيح البخاري ١: ١٥٥، أبواب الجنائز، ويأتي تشبيه البكاء بحزن القلب هنا للدلالة على اتحادهما في حكم الجواز.
- ١٥ - الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين ١: ٣٧٧؛ والسمهودي، وفاء الوفا ٢: ١١٢.
- ١٦ - وفاء الوفا ٣: ١٣٦١.
- ١٧ - العلامة الأميني في الفدير؛ والسيد شرف الدين في المجالس الفاخرة؛ وآية الله جعفر السبحاني في (آيين وهاييت).
- ١٨ - الصواعق المحرقة: ٢٢٣.
- ١٩ - مثوي معنوي، نسخة نيكلسون، الكتاب السادس، رقم الأبيات: ٧٩٦ - ٧٩٩.
- ٢٠ - بحار الأنوار ٤٤: ٣٦٦؛ واللهموف: ٢٥؛ ومقتل الحسين للخوارزمي ٢٢: ٥؛ وكشف الغمة ٢: ٢٩.
- ٢١ - بحار الأنوار ٤٢: ٢٥٤؛ ونهج البلاغة: ٨٧٥.
- ٢٢ - الشهيد مطهري، الحماسة الحسينية ١: ١٢٨ (بتصرف).
- ٢٣ - القندوزي، ينابيع المودة، الباب ٦٠، الأحاديث الواردة في شهادة الحسين عليه السلام.